

لمحة من مسيرة مدرسة النجف الفلسفية

الشيخ عبد الجبار الرفاعي

يمكن القول : إنَّ الشيخَ أبا جعفر محمد بن الحسن الطوسي ، هو أول من ارسى الدعائم المتينة لأكاديمية علمية تعنى بكل العلوم الاسلامية في النجف الأشرف ، كان ذلك بعد أن تعرّض للاعتداء وأحرقت داره ومكتبته في بغداد ، فاضطرَّ للهجرة الى مشهد أمير المؤمنين عليه السلام عام (٤٤٨ هـ) .

لقد كانت الحياة العلمية للشيخ الطوسي تشكّل حلقة الوصل بين مدرستين ومرحلتين مهمتين من مدارس علوم أهل البيت عليهم السلام ، فإنّه ترعرع وتعلّم في ربوع مدرسة بغداد ، واحتضنه أول الأمر الشيخ المفيد لمدة خمس سنوات ، ثم تحول بعد وفاة شيخه هذا عام (٤١٣ هـ) ، الى تلميذه الشريف المرتضى ، ولازم الحضور تحت منبره ، وعُني به المرتضى ، وبالغ في توجيهه وتلقيه ، وأهتمّ به أكثر من سائر تلاميذه ، وعيّن له في كل شهر اثني عشر ديناراً ، وبقي ملازماً له طيلة ثلاث وعشرين سنة ، حتى توفي الشريف المرتضى سنة (٤٣٦ هـ)^(١) ، فاستقل هو بعده بالاستاذية ، وأضحى امام الشيعة الامامية وشيخهم المقدم

(١) الطهراني ، الشيخ آقا بزرك . حياة الشيخ الطوسي ١ : ٨ - ٩ . منشورة في مقدمة كتاب «النهاية ونكتها» .

على غيره، وصارت داره في محلة الكرخ ببغداد مؤثلاً للعلماء والباحثين والطلاب، يتوافدون عليه من كل حدب وصوب لينهلون من نير علمه، حتى بلغ عدد تلامذته ثلاثمائة من مجتهدى الشيعة، ومن العامة عدداً غفيراً^(١). واستقلّ باستاذية علم الكلام، فجعل له الخليفة العباسي القائم بأمر الله عبد الله بن القادر بالله أحمد كرسيّ الكلام والافادة، وقد كان لهذا الكرسي يومذاك عظمة وقدر فوق الوصف، إذ لم يسمحوا به إلا لمن برز في علومه وتفوق على أقرانه، ولم يكن في بغداد يومذاك من يفوقه قدراً أو يفضل عليه علماً، فكان هو المتعين لذلك الشرف^(٢).

وكان الشيخ الطوسي كما وصفه العلامة الحلي: «شيخ الامامية، قدس الله روحه، ورئيس الطائفة، جليل القدر، عظيم المنزلة، ثقة، عين، صدوق، عارف بالأخبار، والرجال، والفقه، والأصول، والكلام، والأدب، وجميع الفضائل تُنسب اليه، صنف في كل فنون الاسلام، وهو المهذب للعقائد في الأصول والفروع، والجامع لكمالات النفس في العلم والعمل»^(٣). ومكث الشيخ الطوسي ببغداد مواصلاً عمله العلمي في البحث والتدريس الى ان ورد بغداد عام (٤٤٧ هـ) طغرل بيك السلجوقي، فسقطت بغداد بيده، فأثار الفتنة الطائفية بين السنة والشيعة، وأمر باحراق مكتبة وزير بهاء الدولة البويهى (سابور بن اردشير) المسماة بدار العلم، وكانت هذه المكتبة من أهم دور الكتب التي تضم ما يزيد على عشرة آلاف كتاب من نفائس التراث الاسلامي آنذاك، حيث شيدها على غرار (بيت الحكمة) الذي بناه هارون الرشيد، ووصفها ياقوت الحموي بقوله: «كانت خزانة الكتب التي أوقفها الوزير ابو نصر سابور بن اردشير وزير بهاء الدولة بن عضد الدولة، ولم يكن في الدنيا

للشيخ الطوسي - قم - جماعة المدرسين في الحوزة العلمية.

(١) م. ن ١ : ٩.

(٢) م. ن ١ : ٩.

(٣) الحلي، الحسن بن يوسف بن المطهر. رجال العلامة الحلي : ١٤٨. تصحيح : السيد محمد صادق بحر العلوم - النجف - المطبعة الحيدرية.

احسن كتباً منها، كانت كلها بخطوط الائمة المعتبرة وأصولهم المحررة»^(١).

ولن تقف الفتنة عند احراق هذه المكتبة الثمينة، بل توسعت لتلتهم التراث الذي حفظه الشيخ الطوسي في مكتبته الخاصة، فقد ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة (٤٤٩ هـ) : « وفي صفر في هذه السنة، كُبت دار أبي جعفر الطوسي متكلم الشيعة بالكرخ، واخذ ما وجد فيها من دفاتره، وكرسي كان يجلس عليه للكلام، وأخرج الى الكرخ وأضيف اليه ثلاث سناجق بيض، كان الزوّار من أهل الكرخ قديماً يحملونها معهم اذا قصدوا زيارة الكوفة، فأحرق الجميع»^(٢).

ولما بلغت الأمور هذا الحد اضطر الشيخ الطوسي لأن يهاجر الى النجف، وعندما هبط النجف بادر الى تأسيس مدرسة علمية جديدة تهتم بتدريس وصيانة تراث اهل البيت عليه السلام، وأنشد بدأت مرحلة جديدة من مراحل مدارس أو حوزات العلوم الاسلامية عند الشيعة، بعد ان اضمحل نشاط مدرسة بغداد بهجرته، فقد كانت هجرته محطة فاصلة بين مدرستين خُتمت بها مدرسة بغداد لتبدأ مدرسة النجف أو الحوزة العلمية في النجف الاشراف.

وهكذا دشّن الطوسي العهد الجديد بالتدريس والتأليف، فكانت لحظة وصوله النجف هي الحد الذي يعيّن بداية تأريخ الدراسة الواسعة لفروع المعارف الاسلامية كافة، تلك البداية التي بدأ بها الانفتاح على التدريس والتأليف في علم الكلام ومختلف حقول المعقول الاسلامي، وهو ما نراه في الآثار الكلامية العديدة التي تركها لنا، فضلاً عن اعتماد أدوات المنطق وآليات البحث الفلسفي في مؤلفاته الأصولية والفقهية، فقد «نحى نحو ابن رشد وغيره من المشائين المسلمين، وواصل الاستدلال بالأقيسة المنطقية السورية، باذلاً جهده

(١) ياقوت الحموي . معجم البلدان ٢ : ٣٤٢، ومحمد كرد علي . خطط الشام ٦ : ١٨٥.

(٢) ابن الجوزي . المنتظم في تأريخ الملوك والأمم ٨ : ١٧٩.

في سلامة الأدلة، حرصاً على ما ألفه المتكلمون قبل امام الحرمين، الذين كانوا يظنون أنّ المدلول يبطل ببطلان دليله»^(١).

إنّ تفحص تراث الشيخ الطوسي يكشف عن ارتسام المنحى العقلي في اسلوب الاستدلال البرهاني الذي يغور في مباحث شتى لديه، وان كان يتجلى متدفقاً في المباحث الكلامية خاصة، وعلى هذا يلزم اعداد عملٍ مستأنفٍ لبيان البحث المنطقي والفلسفي في مؤلفاته، ولذا سنقتصر هنا على تعداد سريع لآثاره الكلامية خاصة وهي كما يلي :

١ - أصول العقائد، ذكره في كتابه الفهرست (ص ١٦١)، معبراً عنه بقوله : كتاب في الأصول كبير، خرج منه الكلام في التوحيد وبعض الكلام في العدل.

٢ - الاقتصاد الهادي الى طريق الرشاد : وهو فيما يجب على العباد من أصول العقائد والعبادات الشرعية على وجه الاختصار، طبع في طهران سنة (١٤٠٠ هـ)^(٢).

٣ - تلخيص الشافي في الامامة : أصله لاستاذه الشريف المرتضى علم الهدى، وقد قام هو بتلخيصه، طبع التلخيص في نهاية الشافي في طهران سنة (١٣٠١ هـ)^(٣).

٤ - تمهيد الأصول : وهو شرح لكتاب «جمل العلم والعمل» لاستاذه الشريف المرتضى، لم يخرج منه إلا ما يتعلق بالأصول، كما أشار في الفهرست (ص ١٦١)، وطبع في طهران بتحقيق عبد المحسن مشكاة الديني، سنة (١٣٦٢ ش)^(٤).

٥ - رياضة العقول : وهو شرح لكتابه «مقدمة في المدخل الى علم الكلام»، كما أشار هو الى ذلك في الفهرست ص (١٦١)^(٥).

(١) الفاسي، علال. المدرسة الكلامية : آثار الشيخ الطوسي وآراؤه الخاصة بهذا العلم. بحث مقدم في المؤتمر الأثني.

(٢) الرفاعي، عبد الجبار. معجم المطبوعات العربية في ايران : ١٢٦ - طهران - وزارة الثقافة والارشاد.

(٣) م.ن : ١٣٥.

(٤) م.ن : ١٣٥.

(٥) التجاشي. مصدر سابق : ٤٠٣.

- ٦- كتاب ما لا يسع المكلف الاخلال به^(١).
 - ٧- ما يعلل وما لا يعلل^(٢) ذكره هو في الفهرست (ص ١٦١).
 - ٨- المسائل في الفرق بين النبي والامام : ذكرها في الفهرست (ص ١٦١).
 - ٩- المسائل الرازية في الوعيد : وهي خمس عشرة مسألة، وردت من الري الى استاذة الشريف المرتضى فأجاب عنها، وأجاب عنها الشيخ الطوسي ايضاً، ذكرها في الفهرست (ص ١٦١).
 - ١٠- المفصح في الامامة : طبع في قم بتحقيق الشيخ رضا استادي^(٣).
 - ١١- مقدمة في المدخل الى علم الكلام : وصفها في الفهرست (ص ١٦١) بقوله : «لم يعمل مثلها»، طُبعت في قم بتصحيح محمد تقي دانش پژوه^(٤).
- هذا ما وقفنا عليه من التراث الكلامي للشيخ الطوسي، وهو تراث ليس بقليل، ولا سيما اذا وضعناه بمحاذاة ما أتحننا به الشيخ من آثار خالدة متنوعة في مختلف مناحي المعارف الاسلامية.

مدرسة النجف بعد الشيخ الطوسي :

في ليلة الاثنين الثاني والعشرين من المحرم سنة (٤٦٠ هـ) انطفأ النور الذي تدفق مدة اثنتي عشرة سنة في النجف الأشرف، وازدلفت اليه العلماء والطلاب، تقطيس من فيوضاته الكريمة، وأجفلت بغيابه هذه الاكاديمية الفتية، فاهتزت أركانها، وبدئ للناظر غور مائها واضمحلال حياتها يوماً بعد يوم اثر غيابه، وان كان مَنْ خلفوه من تلامذته - وعلى رأسهم ولده الشيخ ابو علي الحسن - قد حاولوا مواصلة الطريق وحراسة حوزة استاذهم، لكن مقام الشيخ الطوسي وموسوعيته وغزارة انتاجه أتعبت تلامذته عن تقصي أثره .
هـ اللحاق به .

(١) النجاشي . مصدر سابق : ٤٠٣ . (٢) ن . م : ٤٠٣ .

(٣) الرفاعي ، عبد الجبار . مصدر سابق : ١٦٥ . (٤) م . ن : ١٦٦ .

وكان الشيخ ابو علي الحسن بن أبي جعفر الطوسي من أبرز تلامذة أبيه الذين استوعبوا تراثه، وامتدت بهم مدرسته، فقد « صار فقيه الشيعة وإمامهم بمشهد علي رضي الله عنه » بعد غياب أبيه بحسب ما وصفه ابن حجر العسقلاني^(١).

وتشير بعض القرائن التاريخية الى بقاءه حياً حتى سنة (٥١٥ هـ)^(٢)، وبعد وفاته تعهد عمادة مدرسة النجف الاشرف ولده الشيخ محمد بن أبي علي الحسن بن ابي جعفر محمد الطوسي، الذي عزز المركز العلمي للنجف فازدلفت اليه طلاب العلوم الشرعية من مختلف نواحي العراق، كما أكد ذلك ابن العماد الحنبلي في ترجمته له في حوادث سنة أربعين وخمسمائة بقوله :

« وفيها أبو الحسن محمد بن الحسن أبو علي بن ابي جعفر الطوسي، شيخ الشيعة وعالمهم، وابن شيخهم وعالمهم، رحلت اليه طوائف الشيعة من كل جانب الى العراق، وحملوا اليه، وكان ورعاً عالماً كثير الزهد، وأثنى عليه السمعاني.

وقال العماد الطبري : لو جازت علي غير الأنبياء صلاة صليت عليه »^(٣).

وقد ظل هذا الشيخ قيماً على مدرسة جدّه حتى توفي عام (٥٤٠ هـ) وبوفاته طويت صفحة مشرقة من تاريخ ازدهار الدرس الشرعي في النجف الأشرف، استمرت ما يقارب القرن من الزمان (٤٤٨ - ٥٤٠ هـ)، انتظم فيها عدد كبير من التلاميذ في حلقات الدرس، وأضحت منطلقاً لتأسيس مدارس جديدة عند الشيعة الامامية في الحقبة التالية، كانت اعظمها مدرسة الحلة التي اضطلع بإرساء قواعدها العلامة الشهير محمد بن ادريس الحلي صاحب « السرائر » المولود سنة (٥٤٣ هـ) والمنتسب الى شيخ الطائفة الطوسي من جهة الأم.

ولا يمكن الجزم أنّ مدرسة النجف توقفت تماماً في العصر اللاحق، لوجود إشارات في

(١) ابن حجر العسقلاني. لسان الميزان ٢ : ٢٥٠. (٢) الطهراني، الشيخ آقا بزرك. مصدر سابق : ٥٨.

(٣) م. ن : ٥٩، عن شذرات الذهب في اخبار من ذهب ٤ : ١٢٦ - ١٢٧.

بعض الكتب المؤلفة آنذاك من كتب التراجم وغيرها تنص على تحرير بعض اجازات الرواية في المشهد الغروي المقدس^(١)، مما يدل على امتداد الحركة العلمية في مدرسة النجف، وإن كانت بصورة محدودة.

بيد أنه لا يلوح لنا أثر مهم في المعقول والعرفان كإنتاج لهذه المدرسة بعد شيخ الطائفة الطوسي حتى النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، عندما حظ رحاله في النجف السيد حيدر بن تاج الدين علي باد شاه الآملي أبرز مؤسسي الحكمة العرفانية عند الامامية بعد ان طاف عدة بلدان في رحلة علمية تواصلت من بداية حياته «الى» مدة ثلاثين سنة أو قريب منها^(٢) كما حكى لنا هو ذلك في حديثه عن نفسه وبيان حاله من ابتداء مراحل السلوك الى حين الوصول، وما ارتسم من معالم تجربته الروحية، وتلقيه للعلوم اللدنية دون الكسبية في نهاية المطاف، حيث يقول :

«وبالجملة حتى بعد مدة وصلت الى بغداد بطريق آخر، وزرت المشاهد المقدسة من مشهد أمير المؤمنين علي عليه السلام، ومشهد الحسين، وموسى والجواد، وسر من رأى عليه السلام وجاورتهم سنة كاملة، ثم توجهت الى الكعبة بقصد الحج مجرداً فقيراً مع عدم التمكن الصوري، وزرت الرسول صلى الله عليه وآله والائمة الأربعة عليهم السلام بالمدينة، ورجعت الى العراق وسكنت المشهد المقدس الغروي سلام الله على مشرفه، واشتغلت بالرياضة والخلوة والطاعة والعبادة، وطلب العلوم الحقيقية اللدنية الإرثية دون الكسبية التعليمية، ولم يكن هناك أحد يعرف هذا القسم، وكان هناك شخص عارف كامل خامل الذكر بين الناس، ولي من أولياء الله، اسمه عبد الرحمن القدسي، فقرأت عليه أولاً كتاب منازل السائرين مع شرحه، ثم كتاب فصوص الحكم مع شرحه، ثم رسائل آخر، ومضى على هذا زمان، وكشف لي

(١) أورد هذه الاشارات الشيخ الطهراني في طبقات اعلام الشيعة. القرن السادس والسابع والثامن.

(٢) الآملي، السيد حيدر. تفسير المحيط الأعظم والبحر الخضم ١ : ٥٢٩، تحقيق السيد محسن الموسوي

التبريزي. - طهران - وزارة الثقافة والارشاد الاسلامي، ط ١، ١٤١٤ هـ.

ببركة هذا وببركة المجاورة، والتوجه الى حضرة الحق وحضرة الائمة عليه السلام، اكثر كتب التصوف من المطولات والمختصرات، وكتبت عليها شروحاً وحواشي كما ذكرت في صدر هذا الكتاب [يعني تفسير المحيط الاعظم] مفصلاً، وصنفت بعد ذلك الكتب المذكورة في الفهرست وهي قريبة الى عشرين أو أربعة وعشرين كتاباً، وذلك في مدة اربع وعشرين سنة وكان آخر تلك الكتب هذا التأويل [أي تفسير المحيط الأعظم]»^(١).

يؤرخ السيد حيدر الآملي في هذا النص لأخصب مرحلة من مراحل الانتاج الغزير في حياته، وهي المرحلة التي بدأت مع هجرته الى النجف الأشرف وتلمذه على القدسي ومجاورته لقبر أمير المؤمنين عليه السلام، وكان ذلك في سنة احدى وخمسين وسبعائة من الهجرة^(٢)، فقد استلهم مؤلفاته من بركات تلمذه على الولي عبد الرحمن القدسي، ومجاورة المشهد الغروي المقدس في النجف، وقد عبر عن تدفق الفيوضات على قلبه بحيث أضحى «المشهد المقدس الغروي الذي هو مشهد مولانا وسيدنا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام، موجب الفتح للفتوح الغيبية على قلبي اجمالاً، ثم تفصيلاً... ففاض على قلبي من الله تعالى ومن حضراته الغيبية في هذه المدة، غير ما قلته من «تأويل القرآن» و«شرح الفصوص»، من المعاني والمعارف والحقائق والدقائق التي لا يمكن تفصيلها بوجه من الوجوه، لأنها من كلمات الله غير القابلة للحصر والعد والانتها والانتقطاع»^(٣). ومكث الآملي في النجف مجاوراً المشهد المقدس ما يزيد على ثلاثين سنة، كما أشار الى ذلك في شرحه لفصوص الحكم قائلاً: «فشرعت في شرحه... وهذا كان بعد مجاورتي بالمشهد المقدس ثلاثين سنة على الوجه المذكور. وكان ابتدائي فيه سنة احدى وثمانين وسبعائة من

(١) م.ن: ٥٣١.

(٢) الآملي، السيد حيدر. المقدمات من كتاب نص النصوص: ٥٣٦. تصحيح هنري كربين وعثمان يحيى

- طهران - انتشارات طوس، ١٣٦٧ ش. (٣) م.ن: ٥٣٤، ٥٣٦.

الهجرة، والانتهاه منه سنة اثنين وثمانين وسبعائة»^(١).

وفي هذا الضوء يمكن القول إنّ النصف الثاني من القرن الثامن شهد ازدهاراً مجدداً في مدرسة النجف، أُتيح لها معه هذه المرة أن تساهم بفعالية مشهودة في تأسيس الحكمة العرفانية عند الامامية على يد السيد حيدر الآملي، وربما كان عبد الرحمن القدسي أستاذ الآملي صاحب الحظ الأوفر في ذلك، وان كنا لا نعرف الكثير عن حياته، لكن يمكن معرفة ما بلغه هذا الرجل من موقع علمي شاخ في هذا الفن من خلال تصديه لتدريس أدق المتون العرفانية، وما شهد به تلميذه الآملي بما أفاضه عليه من معارف.

لقد كان للقدسي دور أساسي في توجيه الآملي وتيسير مباحث العرفاء له واعداده لمهمة غير عادية سيضطلع فيها لاحقاً بانجاز طائفة من اهم مؤلفات الحكمة العرفانية الأولى في التراث الإمامي، وهذا ما يتجلى لنا بوضوح في اجازته لتلميذه الآملي التي جاء فيها:

«اما بعد، فقد قرأ عليّ السيد الامام الهمام، العالم الكامل، قطب الموحدين، زبدة المتبحرين، كهف الحاج والمعتمرين، المخصوص بعناية رب العالمين، السيد ركن الحق والملة والدين، حيدر بن تاج الدين علي پادشاه الحسيني الآملي ادام الله ظله، كتاب فصوص الحكم لمحبي الدين بن العربي قدس الله سره مع شرح للقيصري، وكتاب منازل السائرين للشيخ أبي اسماعيل الهروي رحمة الله عليه مع شرح لعفيف الدين التلمساني رحمة الله عليه، قراءة مرضية، تشهد بفضله وفطنته، وكان استفادتي منه اكثر من افادتي له، وكان ذلك بالمشهد الغروي سلام الله على مشرفه، سلخ رجب المرجب من سنة ثلاث وخمسين وسبعائة وكتب الفقير الى الله تعالى عبد الرحمن بن احمد القدسي تجاوز الله عن سيئاته»^(٢).

استطاع السيد حيدر الآملي أن يكتب ما مجموعه ستة وعشرين كتاباً ورسالة، تنتظم بمجموعها في محاولة لاعادة تدوين الحكمة العرفانية لمن سبقه، ولا سيما الشيخ محيي الدين

(٢) ن.م: ٥٣٥.

(١) م.ن: ٥٣٧.

بن العربي، في اطار تأويل تراث أهل البيت عليهم السلام، وتأويل القرآن الكريم الذي تمثل في كتابه الموسوم بـ «المحيط الأعظم والطود الأشم في تأويل كتاب الله العزيز المحكم»، والذي رتبته كما ذكر: «على سبعة مجلدات كبار، بازاء تأويل الشيخ الأعظم نجم الدين الرازي المعروف بـ «دايه» فانه رتب كتابه على ستة مجلدات كبار، بعد تسميته بـ «بحر الحقائق ومنبع الدقائق»، ونحن أردنا أن يكون لنا تفسير على قرنه من كل الوجوه، وبمقتضى الحديث الوارد فيه ايضاً: «ان للقرآن ظهراً وبطناً، ولبطنه بطناً، الى سبعة أبطن»، وبمقتضى اشتاله أي القرآن الكريم على السبعات المعلومة، وغير ذلك مما أوجب ترتيبه عليها»^(١).

وتعتبر محاولة الآملي هذه أول أوسع محاولة لترسيخ المنحى التأويلي في التراث الامامي، وقد مهد هذا المنحى لولادة اتجاه متميز بعد أقل من قرنين، ثم تعاظم دور هذا الاتجاه لدى الشيعة الامامية بمرور الزمان، ولم تجهضه الردود المتنوعة التي أطلقها المحدثون والفقهاء والمتكلمون من الامامية، الذين أصر الكثير منهم على شجب هذا المنهج في تفسير القرآن الكريم، وفهم المأثور عن الرسول وأهل البيت صلوات الله عليهم. وبغض النظر عن مدى صحة هذا المنهج وصواب المنحى الذي تدور حوله أعمال الآملي، ودقة تعبيره عن هدى الوحي الإلهي فانه يمكن اعتبار «الانتاج العقلي لشيخ آمل، السيد حيدر بن علي بن حيدر العلوي الحسيني، من قم التفكير الاسلامي في القرن الثامن للهجرة؛ فؤلفاته التي حفظها لنا الزمن وأمكن الاطلاع على بعضها، تصور نضوج الحكمة العرفانية في الاسلام، وانتظامها سائر النشاط الفكري والديني على السواء»^(٢).

إنّ الفضاء الذي انتشرت في آفاقه الآثار التي تركها الآملي جغرافياً وزمناً، ارتسم فيه الدور التأسيسي لبيئة النجف، في إثراء التجربة الروحية عند الامامية، ذلك ان مدرسة

(١) الآملي، السيد حيدر. المقدمات من كتاب نص النصوص : ١٢.

(٢) الآملي، السيد حيدر. جامع الاسرار ومنبع الأنوار : ١. تصحيح هنري كربين وعثمان يحيى. طهران، شركة انتشارات علمي وفرهنگي، ١٣٦٨ ش. من تصدير عثمان يحيى.

النجف لم يغر ماؤها بعد ارتحال الفقه والحديث الى الحلة، وانما أتمت عملها باستئناف مهمة جديدة لم تتعهدا الحلة ولا أية مدرسة لعلوم الدين عند الامامية آنذاك، فأزاحت ما تكدّس من الحجب والكدورات في عالم الظاهر، وغطست بعيداً تغور نحو الباطن، متدلية من الشريعة الى الطريقة، لتكتشف في نهاية المطاف الحقيقة فتصل الى ملاذها المفقود، لأن «الشريعة والطريقة والحقيقة، أسماء مترادفة الدلالة على حقيقة واحدة، التي هي حقيقة الشرع المحمدي باعتبارات مختلفة، وليس بين هذه المراتب مغايرة أصلاً في الحقيقة، لأن الشرع كاللوزة مثلاً المشتملة على القشر واللّب، ولبّ اللّب، فالقشر كالشريعة الظاهرة، واللّب كالطريقة الباطنة، ولبّ اللّب كالحقيقة الباطنة للباطن، واللوزة جامعة للكل، كما قيل في الصلوات ومراتبها المترتبة عليها: الصلاة خدمة، وقربة، ووصلة؛ فالخدمة هي الشريعة، والقربة هي الطريقة، والوصلة هي الحقيقة، واسم الصلاة جامع للكل. وقيل أيضاً: الشريعة أن تعبده، والطريقة أن تقوم بأمره، والحقيقة أن تقوم به»^(١).

إنّ تبلور هذا المنحى في مسار الفكر الشيعي، تسبب في تداعي تفسيرات واستفهامات مختلفة، كانت تنثال عبر عدة قرون حتى عصرنا الراهن، وهي بمجموعها وان لم تصدر عن رؤية واحدة، لكنها تتوحد في تفكيك عناصر الفكر الشيعي وإحالة بعضها الى ثقافات أخرى خارج البيئة الاسلامية. وقد راح ضحية هذا المنهج ذي النظرة الاحادية في قراءة الموروث الاسلامي عند الشيعة مكونات اساسية في هذا الموروث، عندما اختزل بعضهم التشيع بنزعة غنوصية باطنية ظهرت في الاسلام، مثلما هو الحال في بعض الاتجاهات الشاذة والمنحرفة في التأريخ الاسلامي، فيما حاول آخرون ان يطابقوا بين التشيع والتصوف، أو النظر اليه باعتباره نظاماً عرفانياً ليس الا^(٢). وذهب عن هؤلاء أنّ التشيع

(١) الآملي، السيد حيدر. تفسير المحيط الاعظم والبحر الخضم: ٢٢٧-٢٢٨.

(٢) ذهب الى ذلك بعض المفكرين العرب المعاصرين كالدكتور محمد عابد الجابري في ثلاثيته «نقد العقل

العربي»، وغيره.

تجلى في البرهان والبيان والعرفان، فهو «وجهة نظر تجلّت في مختلف فروع الثقافة الاسلامية وبمجالاتها، في الفقه والحديث، وفي التفسير والكلام، وفي التصوف والفلسفة، ولذا فانه من الخطأ أن ينظر الى التشيع أو الى التسنن بوصفها نظامين عرفانيين لا غير، ففي التشيع - كما في التسنن - بيان وعرفان وبرهان اذا كان لنا أن نأخذ بمصطلحات الجابري، وليس العرفان حكراً على الشيعة من دون أهل السنة»^(١).

إنّ القراءة الموضوعية لتراث الشيعة الامامية، تقضي ان نلاحظ مكونات هذا التراث بمجموعها كمنظومة متواشجة متسقة يتم ويغذي بعضها بعضاً، تتعاقب كلها في تأليف هذا التراث، ولا يبنى احدها الآخر، فلا يصح أن نضحى بالعقل لصالح المضمون الروحي ولا العكس، وبهذه الرؤية سنجد الحكمة العرفانية للتشيع ليست إلاّ تعبيراً عميقاً عن الثراء الروحي في الاسلام، وحينئذٍ سنعرف أنّ «للسيعة اكبر الفضل في اغناء المضمون الروحي للاسلام، واشاعة الحياة الخصبه القوية العنيفة، التي وهبت هذا الدين البقاء قوياً غنياً قادراً على اشباع النوازع الروحية للنفوس، حتى أشدّها تمرداً وقلقاً... ومن الغريب أن الباحثين لم يوجهوا عناية كافية الى هذه الناحية، ناحية الدور الروحي في تشكيل مضمون العقيدة، الذي قامت به الشيعة، والعلة في هذا أن الجانب السياسي في الشيعة هو الذي لفت الأنظار أكثر من بقية الجوانب، مع أنه ليس إلا واحداً منها»^(٢).

تراث المعقول في النجف بعد القرن الثامن :

لا تتوفر لدينا معلومات كافية تفصح عن مسار مدرسة النجف في القرون التالية للقرن الثامن الهجري، لنعرف من الذي خلفه السيد حيدر الآملي هناك لتعليم حكّمته العرفانية، ولكن نستطيع أن نطمئن الى أنّ هذه المدرسة لم تنطفئ تماماً في العصور اللاحقة، وإن

(١) حرب، علي. مداخلات : ١٧. بيروت، دار الهداة.

(٢) بدوي، د. عبد الرحمن. شخصيات قلقة في الاسلام : ٢ - القاهرة - دار النهضة العربية ١٩٦٤ م.

اضمحل دورها كثيراً بعد ظهور مراكز أخرى عند الامامية شاع فيها تعاطي المعقول والحكمة العرفانية خاصة، كما نجد ذلك في شيراز واصفهان ... وغيرها، إلا أن هذا الضمور لم يستمر أكثر من ثلاثة قرون، بعد ان استعادت مدرسة النجف دورها من جديد على يد متأهين كبار كالمولى حسين قلي الهمداني ... وغيره - كما سنشير الى ذلك لاحقاً - وان كانت مدرسة النجف الأشرف لم تقفر تماماً من تعاطي دراسة المعقول والتأليف فيه في القرن التاسع الهجري، فمثلاً مكث الفيلسوف المعروف جلال الدين الدواني المتوفى سنة (٩٠٧ هـ) زمناً هناك عقيب زيارته لأمير المؤمنين عليه السلام قرأ عليه فيها الفقيه حسن الفتال النجفي كتاب «حكمة الاشراق» للسهروردي، وألّف كتابه «الزوراء» هناك الذي جمع فيه بين الحكمة البحتة والذوقية في طريق اثبات الواجب^(١).

وفي القرن العاشر يمكن ان نعثر على مظاهر حركة ونشاط واضح في دراسة المعقول والتصنيف فيه في مدرسة النجف، فمثلاً كان الملا عبد الله اليزدي المتوفى سنة (٩٨١ هـ) أحد الاساتذة المعروفين وقتئذ في هذا الفن في النجف، فكان الشيخ حسن ابن الشهيد الثاني «صاحب كتاب معالم الدين»، والسيد محمد بن السيد ابي الحسن الموسوي العاملي «صاحب كتاب المدارك» ممن قرأ عليه المعقول فيها^(٢)، مضافاً الى أنه ترك مؤلفات عديدة في هذا الفن من اشهرها الكتاب المعروف في الحوزات العلمية بـ «حاشية ملا عبد الله»، وهي حاشية على كتاب «التهديب» في المنطق للفتازاني، فرغ منها في أواخر ذي القعدة سنة (٩٦٧ هـ) في المشهد الغروي المقدس^(٣)، واصبحت منذ ذلك الحين حتى اليوم منهجاً متعارفاً للمبتدئين في دراسة المنطق في الحوزات العلمية.

(١) الطهراني، آقا بزرگ. الضياء اللامع في القرن التاسع : ٣٨. تحقيق : علي نقي منزوي - طهران - جامعة

طهران. والذريعة ١٢ : ٦٣.

(٢) حرز الدين، محمد. معارف الرجال في تراجم العلماء والأدباء ٢ : ٦ - قم - مكتبة السيد المرعشي النجفي،

(٣) م.ن : ٧.

هـ. ١٤٠٥.

ومن آثاره الأخرى: «حاشية على شرح الشمسية»، وهي حاشية على الحاشية القديمة للدواني على شرح الشمسية وعلى حاشية السيد على شرح الشمسية في المنطق، و«شرح العجالة» وهو حاشية على حاشية الدواني أيضاً على تهذيب المنطق، و«حاشية على الحاشية القديمة الجلالية على الشرح الجديد للتجريد»، و«حاشية على الحاشية القديمة الجلالية على شرح المطالع»، و«شرح فارسي لتهذيب المنطق»، و«حاشية على بحث الموضوع من تهذيب المنطق»، و«حاشية على مبحث الجواهر من شرح التجريد»،... وغيرها^(١).

وبعد وفاة الملا عبد الله اليزدي عُرف الامير فيض الله الحسيني النجفي - كان حياً سنة ١٠١٣ هـ - من المهتمين بالمعقول، حيث كانت له «تعليقات على الهيات شرح التجريد»^(٢). ولكن بعد اكثر من قرن من هذا التاريخ (أي في القرن الثاني عشر) يظهر في النجف حكيم متكلم خبير في معظم الفنون، وهو الشيخ محمد مهدي بن ابي ذر النراقي (١١٢٨ - ١٢٠٩ هـ) الذي ترك آثاراً مهمة في الفقه، والأصول، والأخلاق، والهيئة، فان آثاره في المعقول كانت من اهم مؤلفات المعقول التي أنجزتها الحوزة العلمية في النجف آنذاك، وقد عُرف منها «شرح الإلهيات من كتاب الشفاء»، و«جامع الأفكار في الإلهيات»، و«قرة العيون في احكام الوجود»، و«اللمعات العرشية في حكمة الاشراق»، و«اللمعة» وهو مختصر اللمعات، و«الكلمات الوجيزة» وهو مختصر اللمعات، و«انيس الموحدين» وهو من أواخر تصنيفاته في المعقول، لم تتم إلا نبذ من الأمور العامة والطبيعات منه،... وغيرها^(٣).

(١) آل محبوبة، الشيخ جعفر. ماضي النجف وحاضرها ٣: ٣٨٦. بيروت، دار الأضواء، ط ٢، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

(٢) الأميني، د. محمد هادي. معجم الفكر والأدب في النجف خلال الف عام ١: ٣٠٩ - بيروت - ط ٢، ١٤١٣ هـ - ١٩٨٦ م.

(٣) النراقي، ملا مهدي. شرح الإلهيات من كتاب الشفاء: ٢٥. باهتام د. مهدي محقق - طهران - ١٣٦٥ ش.

كذلك ظهر في هذا القرن عالم آخر من تلامذة السيد مهدي بحر العلوم، وهو محمد بن علي بن محمد بن محمد حسين المتوفى سنة (١٢٢٠ هـ) كان له اهتمام بارز بالحكمة والكلام وأنجز بعض الآثار في ذلك، منها « تحفة الأنام في شرح منظومة الكلام»، و«منظومة في الكلام»^(١).

ومنذ منتصف القرن الثالث عشر تنامت مظاهر الاهتمام بالمعقول في مدرسة النجف الأشرف، ودبّ النشاط بالتدرّج في دراسته والتأليف فيه، كما يتبدى لنا من بعض المؤلفات التي صنّفها أعلام هذه الفترة، فمثلاً كتب يعقوب البارفروشي المازندراني المتوفى بعد سنة (١٢٧٤ هـ) «حاشية على الاسفار»^(٢)، كذلك صنف محمد حسين اليزدي الاردستاني المتوفى سنة (١٢٧٣ هـ) مجموعة مؤلفات في المعقول، منها: «القسطاس المستقيم في المنطق» و«المكيال القويم في الميزان» و«تعليقة على حاشية ملا عبد الله على التهذيب»^(٣).

وذهب بعضهم الى ان ما تضمنه كتاب «جواهر الكلام» مما يتعلق بالعلوم العقلية هو من انجاز الملا باقر التركي النجفي المتوفى سنة (١٢٧٣ هـ) الذي كان بارعاً في العلوم العقلية والرياضية، وكان من خاصة الشيخ محمد حسن صاحب الجواهر^(٤).
ومن عاشوا في هذه الفترة محمد حرز الدين (١١٩٣ - ١٢٧٧ هـ)، وقد اشتهر ببراعته في المنطق، ومن آثاره في ذلك «حاشية في المنطق» و«شرح الشمسية» لقطب الدين الرازي^(٥).

ومن امتاز في هذه الفترة بخبرة في المنطق والعلوم العقلية موسى الاحسائي الهجري

(١) الأميني، محمد هادي. مصدر سابق ٢: ٦٤١. (٢) م. س ٣: ١١٣٨.

(٣) م. س ١: ١٠٤.

(٤) حرز الدين، محمد. معارف الرجال ١: ١٢٥-١٢٦.

(٥) الأميني، محمد هادي. مصدر سابق ١: ٤٠٦.

الفلاحي (١٢٣٩ - ١٢٨٩ هـ)، الذي ألف منظومة في المنطق أسماها «الباكورة» طبعت في النجف الاشراف سنة (١٣٢٩ هـ)^(١).

وكان محمد تقي الكلبياني النجفي (١٢١٨ - ١٢٩٨ هـ) من أعلام محققي هذه الفترة في الفلسفة والكلام، وله بعض الآثار في ذلك، منها «منتخب شرح الهداية» و«شرح اصول الكافي» و«رسالة في علم الكلام»^(٢).

أدوار مدرسة النجف الفلسفية :

بعد تطوفا عبر عدة قرون في ارجاء مدرسة النجف العقلية، ووقوفنا على بعض آثار أعلامها في المعقول، يلوح لنا ان الاهتمام بالمعقول اقترن بالاهتمام بالرياضيات، والهيئة، والطب، والكيمياء، و... وغيرها مما يشتمل عليه التراث العلمي، بيد ان هذه الاهتمامات كانت تدور في نسق مناهج البحث المتداولة في التراث، ولم يُقدّر لها ان تتواصل مع حركة تطور الاكتشافات العلمية الواسعة في حقل الطبيعة في اوروبا وقتئذ، كما تفيد من ادوات واساليب البحث العلمي الجديدة. هذا يعود لعدة أسباب من أهمّها :

انّ النجف حاضرة تُعنى بالدرس الشرعي، وإن كانت دائرة هذا الدرس تمتد عند القدماء لتستوعب شيئاً من مساحة التراث العلمي، فضلاً عن افتقار الدارس للمعرفة باللغات الأوروبية، وبدائية وسائل الاتصال آنئذ بين البلدان.

أمّا في حقل المعقول فأوضح ما نراه في تلك القرون، هو شيوع دراسة المنطق وعلم الكلام والتأليف فيها، بينما لا نعثر إلا على تجارب محدودة في التأليف والدراسة في الفلسفة والعرفان، خلافاً لما نراه في القرن الرابع عشر الهجري، فان الدور الجديد لمدرسة النجف الفلسفية بدأ بالعرفان مع المولى حسين قلي الهمداني، وان كان البُعد النظري في هذا العرفان

(١) حرز الدين، محمد. مصدر سابق ٣: ٤١ - ٤٤. (٢) م. س ٢: ٢١١ - ٢١٣.

ظل متوارياً لدى الهمداني وتلامذته وراء تجربتهم الصارمة في الارتياض الروحي .
ثم تبدت بالتدرج مظاهر الاهتمام بالفلسفة ، وبرز الوجه النظري للعرفان بعد تعاطي
دراسة متونه المشهورة ، واقترن في هذا الدور العرفان النظري بالفلسفة ، وبتعبير أدق
تبلورت مناقش دارسي المعقول في النجف في النصف الأول من القرن الرابع عشر في مدرسة
الحكمة المتعالية لصدر الدين الشيرازي ، ولما كان العرفان النظري ، خصوصاً تراث الشيخ
محي الدين بن عربي ، أحد المنابع الرئيسية التي استقى منها الشيرازي أسس مدرسته ، كان
من اللازم العودة الى تلك المنابع والاحاطة بمعالمها ، بموازة دراسة الحكمة المتعالية .

في هذا الضوء يمكن القول إن مدرسة النجف الفلسفية مرّت بعدة ادوار ، نستطيع أن

نحددها بما يلي :

الدور الأول :

ويبدأ هذا الدور بوفود الشيخ الطوسي الى النجف وتأسيسه لمدرستها العلمية في العقد
الخامس من القرن الخامس الهجري ، ويمتد بعد وفاة الطوسي سنة (٤٦٠ هـ) بامتداد
تلامذته في هذه المدرسة .

وقد اتسم هذا الدور بالاهتمام بعلم الكلام وظهور عدة مؤلفات للشيخ الطوسي فيه .

الدور الثاني :

لا يمكن الجزم بتحديد تأريخ دقيق لبدء هذا الدور ، ولكن يعتبر النصف الثاني من القرن
الثامن الهجري عصر ازدهار هذا المقطع من ادوار تطور الحكمة في مدرسة النجف ، ففي سنة
(٧٥١ هـ) هبط السيد حيدر الآملي النجف ، ومكث فترة طويلة هناك تعلم فيها الحكمة
العرفانية على يد شيخه عبد الرحمن القدسي ، ثم عكف متفرغاً لتدوين اعماله ، التي ولدت
في ثناياها الحكمة العرفانية عند الشيعة الامامية .

ولذلك اضحى العرفان النظري أو الحكمة العرفانية هو السمة المميزة التي اتسم بها هذا
الدور من ادوار مدرسة النجف الفلسفية ، وقد تزامن ذلك مع نضوب الدرس الشرعي في

مدرسة النجف، وازدهار مدرسة الحلة وظهور فقهاء كبار فيها ساهموا باثراء الفقه الجعفري اًفقياً ورأسياً، كابن ادريس، والمحقق الحلي، والعلامة الحلي... وغيرهم. وكان السيد حيدر الآملي تتلمذ على 'فخر المحققين في الدرس الشرعي بمدرسة الحلة قبل قدومه النجف. من هنا لم يسجل التاريخ بروز أسماء أخرى في مدرسة النجف واصلت تجربة الآملي في القرن التالي، فلم يتجاوز دور الحكمة العرفانية القرن الثامن، ولم يتمدد زمنياً على مدة طويلة، لأننا لا نعرف سوى حيدر الآملي، وقبله شيخه عبد الرحمن القدسي الذي تحدّث هو عنه، من الأعلام المختصين بهذا الفن.

الدور الثالث :

لا تسعفنا المصادر المتوفرة بمعلومات توضح احوال مدرسة النجف في القرن التاسع، بيد أن هناك أكثر من دليل على حضور نشاط غير عادي لدراسة المعقول منذ القرن العاشر فما بعد، لمعت فيه بعض الأسماء المشار إليها فيما سبق.

وانصبّ اهتمام هؤلاء على تدريس المنطق والتأليف فيه، مضافاً الى علم الكلام والفلسفة أحياناً، واصبحت مشاغل الباحثين في المعقول في هذا الدور لا تقتصر على ذلك، بل تقترن بالرياضيات، والهيئة، واشياء أخرى تتعلق بالتراث العلمي، مثل الطب وغيره أيضاً.

وزحف هذا الدور على القرون التالية للعاشر أيضاً، فامتد ليشمّل القرن الحادي عشر والثاني عشر ومعظم الثالث عشر.

الدور الرابع :

يبدأ هذا الدور في نهاية القرن الثالث عشر بحضور سلسلة اساتذة متأهّلين في النجف الاشرف، عُرفوا بالارتياض الروحي وتهذيب النفس، وصاروا اثر بلوغهم مقامات متقدمة في مراتب الكمال على اعتبار مرحلة جديدة تزواج فيها المعقول بالعرفان العملي، بل تجلّى العرفان العملي كصبغة خاصة تلوّنت فيها شخصيات من يتعاطون دراسة الحكمة.

ويمكن اعتبار السيد علي الشوشتري أول حلقة في هذه السلسلة، وقد كان معاصراً للشيخ مرتضى الأنصاري، وكان يتبادل معه حضور الدروس، ففيما يحضر هو درس الفقه والأصول عند الشيخ، التزم الشيخ الانصاري بحضور دروس السيد الشوشتري الاسبوعية في الاخلاق وتهذيب النفس.

وبعد ستة اشهر من وفاة الشيخ الانصاري يلتحق به السيد علي الشوشتري، بيد أنه قبل وفاته يكتب رسالة الى حسين قلي الهمداني يوعز له فيها بالتوجه نحو مقامات تهذيب النفس ويرشده الى المنهج الرباني للسير والسلوك، علماً بأن الهمداني كان من الذين استلهموا من غير السيد الشوشتري قبل سنوات من وفاة الشيخ الانصاري، وبذلك أضحى الهمداني خليفته في مدرسته السلوكية، وأفلح في تربية طائفة كبيرة من التلاميذ، من ابرزهم الميرزا جواد الملكي التبريزي، والسيد احمد الكربلائي، والسيد محمد سعيد الحبوبى، والشيخ محمد البهاري الذين امتدت وانتشرت بهم المدرسة السلوكية للمولى حسين قلي الهمداني بعد وفاته سنة (١٣١١ هـ) فثلاً جاء بعد السيد احمد الكربلائي تلميذه الميرزا علي القاضي التبريزي، ومن بعد الأخير تلميذه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي^(١).

وعلى هذا يمكن تحديد بداية الدور الرابع والاخير لمدرسة النجف الفلسفية بهبوط السيد الشوشتري وتلميذه المولى الهمداني النجفي، وانشغالهم بالارتياض الروحي، والدعوة لتهذيب النفس، وتأكيدهم على تعليم الاخلاق والتربية السلوكية، اما الجيل الذي جاء من بعدهم فبدأ يتعاطى تعليم الحكمة المتعالية مضافاً الى مواصلة منحى تهذيب النفس والسير، والسلوك السابق، وبرز من جديد الاهتمام بالمتون المتعارفة للعرفان النظري بعد ان اختفى ذلك لقرون عديدة منذ نهاية القرن الثامن. ولأجل ان تتكشف لنا

(١) الطهراني، محمد حسين. رسالة بُب اللباب في سير سلوك اولي الألباب : ١٢٢ - ١٢٤. ترجمة عباس نور الدين. بيروت، دار التعارف للمطبوعات، ١٤١٢ هـ.

أبعاد الصورة التي تمخّص عنها تطور الدرس الفلسفي في النجف، نوجز فترات الدور الرابع والملاح المميزة لكل فترة من هذه الفترات، كما يلي :

١- الفترة الاولى: كان العرفان العملي هو المنحى السائد في هذه الفترة، حيث أشرنا الى محور جهود الشوشثري وتلميذه الهمداني حول السير والسلوك، وفي فضاء هذه المدرسة السلوكية تخرجت طائفة من معلمي الاخلاق والعرفان العملي المشهورين .
وفي هذه الفترة لا نجد حضوراً واضحاً لدراسة الفلسفة ومتون العرفان النظري، والمكوث سنوات عديدة في شرح عباراتها وتفكيك رموزها كما جرى في الفترة التالية، ومع خبرة المولى حسين قلي الهمداني العميقة في مدرسة الحكمة المتعالية التي تلقاها على يد ملا هادي السبزواري لكن انصبّ اهتمامه على التربية، والتزكية، ورسم برنامج السير الى الله تعالى، وبيان منازلها .

٢- الفترة الثانية : تواصلت عملية التربية والتزكية مع تلامذة الهمداني، وانتشرت الدعوة لها زمانياً ومكانياً عبر هؤلاء التلاميذ وتلامذتهم، وأصبحت تعاليمهم التربوية منهاجاً يهتدي به السائرون الى الله تعالى، بيد ان الدرس الفلسفي أخذ ينتشر ويتعاضم الاهتمام به في هذه الفترة، وقد تبلور هذا الدرس في منهج محدد، بعد ان مكث قرناً عديدة يتذبذب في غير نسق واحد، فإنّ في هذا الدرس كان يطغى علم الكلام فيما تغيب الفلسفة في بعض اشواطه، وفي شوط آخر يسود العرفان النظري فيما يغيب ما سواه، وفي شوط ثالث يتذبذب الموقف بين خيارات متنوعة لا تمثل مدرسة بذاتها .

لقد اختطت المدرسة الفلسفية النجفية لنفسها مساراً تبنته في هذه الفترة، تمثّل في اتخاذ تراث صدرالدين الشيرازي ومدرسته الفلسفية (مدرسة الحكمة المتعالية) منهاجاً للدرس الفلسفي، مضافاً الى شيء من تراث مدرسة الحكمة العرفانية لأبن عربي .

ويعود تبني المدرسة الفلسفية في النجف لهذا المنهج الى وفود بعض أساتذة الفلسفة من

ايران، مثل محمد باقر الاصطهباناتي والسيد حسين البادكوبي، ممن تلقوا ذلك من مجموعة اساتذة بارعين للحكمة المتعالية والعرفان النظري في طهران، منهم: محمد رضا قشئي، وعلي المدرس، وابو الحسن جلوه... وغيرهم.

وكان هذا الاتجاه في دراسة المعقول قد شاع لدى دارسي الفلسفة في ايران قبل ذلك بفترة طويلة.

٣ - الفترة الثالثة: منذ منتصف القرن التاسع عشر جرت محاولات من قبل بعض الدارسين في العالم الاسلامي، ممن ابتعثوا الى اوروبا، للتبشير بالفلسفة الأوروبية والدعوة الى نقلها وتبني مناهجها، وفي بداية القرن العشرين حاول بعض المترجمين نقل بعض المؤلفات الفلسفية للعربية والفارسية، ثم اتسع نطاق عملية النقل بمرور الزمن، وتأسست لأجلها مؤسسات ومراكز متخصصة ذات صبغة أكاديمية تُنفق عليها الجامعات ووزارات المعارف والتعليم العالي، وسياسية تنفق عليها بعض الاحزاب والفعاليات السياسية، ولا سيما الماركسية منها؛ فتمخضت بانتشار هذه الفلسفة وذيوع نظرياتها ارهاصات واشكالات عقائدية وفكرية عمّت مساحات واسعة من المثقفين والطلاب، واخترقت اروقة الحوزات العلمية.

فوجد دارسو الفلسفة في الحوزة انفسهم امام تحدٍ كبير لا يسعهم الوقوف منه موقف المتفرّج، لأنه سيلتهم إيمان الناس وخصوصاً الناشئة، فاستجابت لهذا التحدي طائفة منهم، وانكبوا على دراسة ما تُرجم من الفلسفة الأوروبية والمادية منها بالذات، ثم عملوا على تحليلها وتفكيك عناصرها الأساسية ونقدها والكشف عما تنطوي عليه من تهافت.

لقد انجز الدرس الفلسفي في النجف في هذه الفترة وظيفة مزدوجة، ففي الوقت الذي تواصلت فيه دراسة المتون التقليدية للحكمة المتعالية والعرفان النظري، عُني بعض دارسي الفلسفة بدراسة الفلسفة المادية ونقدها، عبر المؤلفات الكثيرة التي تناولت هذه المسألة، بدءاً بمؤلفات الشيخ محمد جواد البلاغي، والسيد محمد حسين الطباطبائي حتى مؤلفات

السيد الشهيد محمد باقر الصدر .

وبعبارة أخرى كانت الفلسفة تجري عبر قناتين في الحوزة العلمية في النجف ، في القناة الاولى ' يستمر النسق التقليدي في الدرس الفلسفي ، فيما ترفد القناة الثانية الوعي العقائدي للمسلمين بعناصر القوة والثبات ، وتسلّحه بمقومات الصمود والتحدّي ، أي انها كانت ذات وظيفة دفاعية وقائية من خلال قناتها الاخيرة .

وبلغت مدرسة المعقول في النجف ذروة تطورها وابداعها في مشروع السيد الشهيد الصدر : «الاسس المنطقية للاستقراء» الذي أنجز فيه اكتشاف وصياغة مذهب جديد في تفسير كيفية نمو المعرفة البشرية وتوالدها ، عبر عن اتجاه آخر في تفسير المعرفة ، غير ما كان معروفاً في المذهبين التجريبي والعقلي ؛ وتعد ولادة هذا المذهب الذي اصطلح عليه الشهيد الصدر «المذهب الذاتي للمعرفة» أعظم انجاز تمخّض عنه الدرس الفلسفي في النجف في هذه الفترة ، وان لم يكتشف ويعرف لدى الباحثين المختصين إلا بشكل محدود جداً حتى الآن .وبكلمة أخرى : ان هناك عدة ظواهر تميّز بها هذا العصر من تأريخ مدرسة النجف الفلسفية ، من ابرزها :

أ - هيمنة الفكر الفلسفي لصدر الدين الشيرازي على حلقات الدرس الفلسفي ، وانبساط افكاره الفلسفية على الحياة العقلية بكافة مناشطها ، وازاحته لما تبقى من تعاطٍ لتراث المدرسة المشائية الفلسفي وغيره .

ب - بلغ التفاعل بين المنطق والفلسفة من جهة وأصول الفقه من جهة أخرى ذروته في هذا العصر ، وتجاوز كل العصور السابقة ، بعد ان انطبعت الحياة العقلية عند الشيعة بافكار ومباني مدرسة الحكمة المتعالية للشيرازي ، التي تمازجت مع سائر حقول العلوم الشرعية بدرجات متفاوتة ، لكنها سجّلت حضوراً في البحث الأصولي تفوق على درجة تواجدها في أي علم آخر . ويمكن ملاحظة ذلك بوضوح منذ بداية المرحلة الحديثة في تطور علم الاصول التي افتتحها الشيخ مرتضى الانصاري ، وانتهت الى مديات قصوى على يد الشيخ

محمد حسين الاصفهاني المعروف بالكمباني المتوفى سنة (١٣٦١ هـ).

هذا مضافاً الى زحف المنطق والفلسفة على الفقه، والتفسير، بل قد نعثر على نفوذ لها في علوم الحديث .

وهذا الاسراف في استعارة مفاهيم وقواعد المنطق والفلسفة واستخدامها في هذه العلوم، لا يمكن ان يتخلص من اكثر من اشكالية منهجية، تجعل التوسع في تداول تلك القواعد في علوم الشريعة مورداً لعدة أسئلة، منها :

انّ بعض مفاهيم وقواعد المنطق والفلسفة ليست مورداً لقبول المختصين واجماعهم على صحتها وصواب استخدامها، فطالما وجدنا في قبال مبانٍ أساسية من يقول بخلافها، فبينما تبنتي فلسفة الشيرازي على اصالة الوجود، ينكر فلاسفة آخرون هذه المسألة ويلتزمون القول باصالة الماهية ... وهكذا في مسائل أخرى غيرها، فكيف يصحّ اعتماد مثل هذه المسائل بهذا الشكل الواسع وبناء نظريات مهمّة في أصول الفقه وغيره من العلوم الشرعية عليها؟ وهب أنّها كانت صحيحة ومبرهنة ومورداً لإجماع الفلاسفة وعلماء المعقول، فهل ان مجالها هو نفس مجال تلك العلوم، ام انّ استخدامها في حقل علوم الشريعة هو استخدام لأدوات معرفية خارج اطار حقلها الحقيقي .

ج - تعرّف الفلسفة الأوروبية الحديثة، واكتشاف مسالكها المادية، وقد تمحور الاهتمام بالمذهب التجريبي والاتجاه المادي في هذه الفلسفة لمناقضتها للميتافيزيقيا والايان بالغيب . ولم يقتصر الاهتمام على هذه الفلسفة بل تجاوزها الى قراءة الآراء الجديدة في الفكر الغربي في العلوم الانسانية والعلوم الطبيعية، فكانت نظرية تطوّر الاحياء لعالم الاحياء البريطاني (تشارلز دارون) أحد أهمّ مشاغل المهتمين بالفكر الأوروبي الحديث في الحوزة العلمية في هذا العصر، وتنادى غير واحد لنقضها والرد عليها، كما نلاحظ ذلك لدى الشيخ محمد جواد البلاغي وغيره، وكان السيد عبد الأعلى السبزواري آخر من كتب نقداً لهذه النظرية

اشتمل عليه تفسير «مواهب الرحمن»^(١).

كذلك طال الموقف النقدي آراء بعض علماء الاجتماع والاقتصاد الغربيين، مثلما نرى في رد السيد محمد حسين الطباطبائي على رائد علم الاجتماع الغربي (اوغست كونت) في «الميزان»، ورد السيد الشهيد الصدر على نظرية المادية التأريخية لـ(كارل ماركس) في «اقتصادنا»، وغيرهم.

وتعود البواكير الاولى للتعرف على الفكر الغربي في الحوزة العلمية في النجف الى مطلع القرن الرابع عشر الهجري، حيث كانت تصل النجف وقتئذ بعض الدوريات المصرية مثل «المقتطف» و«الهلل» وغيرها من كانت تُعنى بترجمة بعض كتابات المفكرين الأوروبيين والكتابة عن آرائهم، فاكتشف النجفيون تيارات الفكر الغربي بالتدرج عبر هذه القنوات. د - ساهمت مدرسة النجف الفلسفية في هذا العصر بأعمال فلسفية اساسية اضطلعت بدور رائد في نقض الشبهات والإشكالات العقائدية، وسعت لبيان رؤية كونية ايمانية مبرهنة، بغية تحصين عقائد المسلمين من الانهيار امام تلك الشبهات. كذلك نهضت هذه المدرسة بابداع جديد في منطق الاستقراء - كما أشرنا - انتقلت فيه دراسات المعقول فيها من حالة الشروح والحواشي، بل والدفاع عن العقيدة الى حالة تأسيس وصياغة اتجاه جديد في تفسير المعرفة البشرية وتوالدها.

* * *

(١) السبزواري، السيد عبد الاعلى. مواهب الرحمن في تفسير القرآن ١: ٢٢١ - ٢٢٤ - قم - مؤسسة المنار، ١٤١٤ هـ.